

أسلوب المؤلفات الفارسية للخواجة رشيد الدين فضل الله

بقلم الدكتور سيد جعفر شهيدى

ترجمة

أ. م. د. عماد الدين عبد الرزاق العباسي
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

(فلاصة البحث)

يتحدث هذا البحث الموسوم (أسلوب المؤلفات الفارسية للخواجة رشيد الدين فضل الله)، وهو الوزير الفاضل والمؤرخ (١٢٤٧-١٣١٨م) عن جملة من كتبه ورسائله، وقد ابتدأ الدكتور جعفر شهيدى بحثه هذا بكتابه جامع التواريخ، وهو كتاب مفصل في التاريخ العام للعالم يتضمن تاريخ الملوك السالفين، والأنبياء، وتاريخ الإسلام حتى سقوط بغداد، وتاريخ اليهود، وتاريخ المسيحيين، والهند، والصين، وتاريخ ملوك المغول، ويناقش البحث كيفية اعتماد المؤلف على مصادره، ودقة النقل منها، والإشارة إليها من عدمها، ويورد أمثلة على ذلك بفقرة أو عبارة تاريخية معينة تناولها كتاب تاريخي آخر، ويبين مدى التطابق في الألفاظ بينهما، وأيهما كان سابقاً للآخر، وكيف انه كان ينقل عباراته من كتاب آخر بدون أدنى تغيير أو تبديل، وخصوصاً ما كان ينقله من تاريخ الطبري، وكيف انه جعله مصدراً له، وصنع نسخة أخرى منه ومن تاريخ يميني، ويشير أيضاً إلى أبسط التغييرات التي كان يحدثها الخواجة عند الضرورة في نقله من هذه المصادر، ويسرد أمثلة لاستعماله لبعض الألفاظ والتراكيب بشكل خاطئ من الناحية القواعدية، ومن حيث المعنى، واستعماله لبعض الألفاظ والتراكيب بعينها في فصل أو فصول دون غيرها. أما ما يمكن عده الاسلوب الحقيقي لمؤلف الكتاب؛ فهو الجزء المتعلق بتاريخ الملوك

المغول وأنسابهم؛ لأنه لم يكن يتوفر كتاب جاهز لتحرير هذا المجلد ليكتب الخواجه رشيد الدين متكناً عليه، وبالنتيجة فقد بقي مصدر الكتاب محفوظاً نوعاً ما. فكل ما كتب كان من إنشائه هو، وكان إتباعاً للأسلوب الرائج في عصره، مع ملاحظة أن نثر هذا الفصل من الكتاب هو أيضاً لم يكن على المنوال نفسه من البساطة والسلاسة. وقد أشرَّ البحث أيضاً موضوعات اقتباس الآيات القرآنية، وتضمين الحديث بصورة استشهاد، والطباق والتضاد.

فضل اسلوب المؤلفات الفارسية للخواجه رشيد الدين الله

إنَّ تعيين أسلوب المؤلفات الفارسية للخواجه رشيد الدين فضل الله عمل ليس بالسهل بسبب تنوع كتبه ومدوناته، إلى الحد الذي يمكن معه القول إن أسلوب كتابات الخواجه تتغير طبقاً لكتبه ورسائله. هذا الاختلاف يمكن أن يكون أحياناً جلياً ومن الممكن ملاحظته، ويحتاج أحياناً إلى التدقيق والتدبر. ومن مؤلفات الخواجه الفارسية التي بين أيدينا اليوم، الأول: كتاب **جامع التواريخ** الذي يشتمل على تاريخ العالم منذ البدء وحتى زمان هذا الوزير الفاضل، الثانية: كتبه ورسائله في مواضيع مختلفة، الثالثة: مكاتباته ومنشأته ورسائله الخاصة، ويجب أن يُبحث كل واحد من هذه المؤلفات بشكل منفرد، والأفضل أن نبدأ بالحديث عن **جامع التواريخ**.

كما نعرف فإن **جامع التواريخ** كتاب مفصل يتضمن تاريخ الملوك السالفين، والأنبياء، وتاريخ الإسلام حتى سقوط بغداد، وتاريخ اليهود، وتاريخ المسيحيين، والهند، والصين، وتاريخ ملوك المغول. وكما يبدو واضحاً من عنوان الكتاب فقد كان هدف المؤلف جمع التاريخ العام للعالم بدون الالتفات إلى صحة وسقم وجرح وتعديل المواضيع. مع أنه يمكن القول إن كتاب التاريخ في زمانه والذين من بعده لم تكن لديهم مثل هذه السجية. وقد ورد في إحدى النسخ الخطية التي تتحدث عن تاريخ المغول والصينيين، والتي استفاد منها كاتب هذا البحث: "عندما رأى ملك الإسلام أدام الله سلطانه، ونتيجة لاهتمامه الكبير والدائم وتشجيعه لأنواع العلوم وتفحصه لفنون الحكايات والتواريخ، وانصراف

أكثر وقته الميمون في اكتساب صنوف الفضائل والكمالات، وبعد دراسة وتصحيح هذا التاريخ، فقد أمر بما أنه لم يؤلف حتى هذا الوقت أي كتاب في التاريخ يشتمل على أحوال وحكايات عموم أهالي الأقاليم وطبقات أصناف بني آدم، ولا يوجد في هذه الديار أي كتاب في باب أخبار سائر البلاد والأمصار، ولم يقم أحد بتفحص وتتبع الملوك المتقدمين، وفي هذه الأيام وبحمد الله ومنه فقد أضحت أطراف وأكناف الربع المسكون بإمرة اروغ المعروف بجنكيزخان، واجتمع الحكماء والمنجمون وأهل العلم وأصحاب تواريخ أهل الأديان والملل من أهالي ختاي وماجين والهند وكشمير والتبت واويغور وبقية الأقسام من الأتراك والعرب والإفرنج في عبادة رب السماء، ولكل واحدة من هذه الطوائف تواريخ وحكايات ومعتقدات، لذا يقتضي الوقوف عندها والاطلاع عليها، لأن هذه التواريخ المفصلة والحكايات المجملة تكمل بعضها البعض، وإن يُحرر باسم مليكنا المبارك، وقد كتب في مجلدين **صور الأقاليم ومسالك الممالك** وقد صنعوا ذيلًا للتاريخ المذكور ليكون مجموعها كتاب لا نظير له جامعاً لجميع أنواع التواريخ، لتوافر الفرصة لإنشاء مثل هذا الاستذكار والذي لم يتيسر في عصر أي من الملوك، لذا يجب إتمامه بدون تلكؤ أو تأجيل ليكون سبباً لدوام الاسم والناموس. وبناء على ما تقدم فقد تفحصت واستخبرت عن جملة من فضلاء وأشرف الطوائف المذكورة، وقد التقطت من مضامين الكتاب المتقدمين مجلداً آخر في باب تواريخ عموم هذه الأقاليم وألحقت مجلداً آخر في بيان **صور الأقاليم ومسالك الممالك**، وقد تم ذيل هذا التاريخ المبارك وسُمي مجموع هذا الكتاب بـ **جامع التواريخ رشیدی**."

وبهذه العبارة الموجزة يمكننا أن نستنبط بسهولة أن الهدف الأصلي للمؤلف قد كان جمع مجموعة من التواريخ لمختلف الأقسام والملل. وإذا ما نهض شخص للقيام بهذا العمل وأراد أن يخلص النية في أقصر مدة لإنجازه، فإن أيسر طريق هو أن يحصل على مصدر وأن ينقل هذا المصدر بعينه وأن يجعله في مجموعة واحدة، وعند الضرورة يُحدث في عباراته تغييراً بسيطاً. لقد اتبع مؤلف أو مؤلفو **جامع التواريخ** الأسلوب نفسه، وهذا الأمر جعل إعادة

تعيين أسلوب خاص لهذا الكتاب بالذات أمراً صعباً. فأحياناً يبدو أن مؤلف **جامع التواريخ** كان بين يديه كتاب وكان ينقل عباراته بدون أدنى تغيير أو تعديل إلى مجموعته. وفي هذه الحالة فبدلاً من البحث في أسلوب **جامع التواريخ** يجب مناقشة أسلوب إنشاء هذا الكتاب، وأحياناً كان يساير أسلوب الكتابة في عصره فيأتي بتغيير بسيط في العبارات، وهذا يتوجب الاطلاع على كيفية تحول النثر الفارسي وتطوره في عصر المؤلف. فعلى سبيل المثال يمكن القول أن ذلك الجزء من **جامع التواريخ** الذي يتحدث عن الفترة من ابتداء العالم وحتى عصر المعتصم مأخوذة من **تاريخ الطبري**، ولو أنه لا يمتلك قدم وصفات **تاريخ الطبري**، لكن عباراته أبسط من بقية أجزاء الكتاب، والجمل أقصر، وتتساوى الألفاظ والمعاني في حدودها، والمعروف أن المؤلف قد جعل **تاريخ الطبري** مصدراً له وصنع منه نسخة أخرى، وهذه عينة من نثر هذا الجزء: "ذكر جمشيد بن نو جهان: كان أخ طهمورث واسمه جم، ويدعونه الشعاع اللامع لأنه كان بغاية الجمال وذو وجه نوراني، فسموه جمشيد، وبما حظي من جمال في العقل والعلم، فقد أجمع عليه عظماء الفرس ونصبوه ملكاً، ثم اشتغل بعد ذلك بتدبير شؤون الدولة، وترتيب الأدوات، واختراع الآلات المفيدة، فوسع مدينة اصطخر".

وإذا لم يكن التركيب (با وجود = مع وجود، بما حظي) في هذه العبارة، فمن الممكن أن نعه من نثر أوائل القرن الخامس. إن المجلد الذي كُتب في شرح أحوال وتاريخ مملكة السلطان محمود الغزنوي وأبيه وأخلافه، هو إعادة تحرير لترجمة كتاب **تاريخ يميني** مع اختلاف بسيط هو من عادة كُتاب القرن السابع، ومنها الإطالة في بعض عبارات الكتاب، وفي مواضع أخرى حذفت الصناعات اللفظية، وحلّ محلها نثر أكثر بساطة، وهنا مقارنة لفقرات من موضوعات الكتابين:

يقول مترجم **تاريخ يميني**: "أول فتح تم في عهده الميمون، كان فتح ناحية بُست، وكان سبب ذلك هو أن طغان، وهو والي هذه المنطقة، والآخر هو باي توز الذي أخذ هذه الولاية من يد طغان عنوة. ولما لم تكن لطغان القدرة على

المقاومة اضطر لترك هذه الناحية وهرب إلى رعاية وحماية ناصر الدين، فطلب العون منه كي يُخرج ولايته من قبضته، فتم قبول خدماته والتزم بإرسال مقدار معين سنوياً يشحن إلى خزائنه المعمورة".

وقد وردت هذه العبارة في **جامع التواريخ** هكذا: "أول فتح تم في عهده الميمون، كان فتح ناحية بُست، وكان سبب ذلك هو أن طغان، وهو والي هذه المنطقة، وقد أخذها من يده عنوة بايتوز أمير هذه الولاية، ولما لم تكن لطغان القدرة على المقاومة، ترك هذه الناحية، وهرب إلى كنف رعاية ناصر الدين، وطلب العون منه لينتزع ولايته من قبضته، والتزم بان يرسل سنوياً شحنة إلى خزائنه" (1).

وكلما نظرنا إلى هذه العبارة القصيرة، نلاحظ انه قد حدثت التغييرات التالية فيها عند نقلها من ترجمة يميني إلى **جامع التواريخ**:

١. إن الجزء الأول من المسند (تم الفتح) قد تم حذفه، وتم الاكتفاء بذكر الرابطة، في الوقت الذي كانت طريقة الكتاب السالفين في مثل هذه المواضع هي ذكر الفعل كاملاً: (منَّ الله بالفتح) (2) أو (عندما تم الفتح) (3)، ونادراً ما يكتفون بذكر الرابطة منفردة. وكان يستخدم فعل (الكيونة) بمعناه الحقيقي أي المطلق الوجود.

٢. إيراد الضمير المتصل بدلاً من الضمير المنفصل: (كان سببه هو)، بدلاً من (كان سبب ذلك هو) والتي جاءت في ترجمة يميني.

٣. تم حذف اصطلاح (قبول الخدمات) والذي كان رائجاً في أسلوب أدباء القرن الخامس والسادس، وحلَّ محلها (التزم بإرسال).

٤. أورد المصدر (انتزاع كردن = انتزاع) بدلاً من الفعل (بيرون كردن = إخراج) في جملة (أخرج ولايته من يده)، والتي تعد ميلاً أكثر لاستعمال المفردات العربية محل المفردات الفارسية.

٥. استعملت كلمة (خزانه) في المؤلفات السابقة لعصر المؤلف مقرونة بوصف العمارة أو المعمورة بشكل يوحي بان لها وجهاً تركيبياً خاصاً، ولا يرى هذا الوصف في عبارة **جامع التواريخ**.

٦. حذف علامة المفعول الصريح (را) تماشياً مع أسلوب نثر عصره (أخرج هذه الولاية بالقوة من يده) وهنا يجب الانتباه مرة أخرى إلى هاتين العبارتين: "فخطف فيله صاحب راية ايلك وألقى به في الهواء، وسحق القوم تحت قدمه بثقل وطأته وبفضل قوته ورمى بخرطومه كل رجل من على ظهر الحصان" (٤). وقد ورد هذا الموضوع في **جامع التواريخ** هكذا:

"فخطف الفيل صاحب راية ايلك وألقى به في الهواء، وسحق القوم تحت قدمه ورماهم من على ظهر الخيول" (٥). وبمقارنة هاتين الفقرتين مع بعضهما، يمكن أن نشاهد التغييرات التالية:

١. حُذِفَ قيد العلة (بثقل وطأته وبفضل قوته) لتصبح العبارة أكثر بساطةً.
٢. في عبارة مترجم **تاريخ يميني** فإن مفعول الفعل (سحق) و (ألقى) كلمتين منفصلتين، في الوقت الذي جاءت الجملة الثانية في **جامع التواريخ** معطوفةً على الجملة الأولى، والمفعول واحد، وهذا يوجب اضطراب المعنى. لأن السؤال الذي يتبادر؛ هو كيف يسحق الفيل أشخاصاً تحت قدمه، ومرة أخرى يُلقى الأشخاص أنفسهم بخرطومه من على ظهر الحصان! وأيضاً في الكتاب أنفسهم، نقرأ في الفصل المتعلق بـ (خلع الطائع) من **ترجمة تاريخ يميني**: "كان لدى الجميع اهتمام أن يختاروا شخصاً لتولي منصب الخلافة وتقلد الإمامة، بحيث يكون مدركاً لحق هذا الشغل العظيم والعمل الجسيم، ويحافظ على وجوب رعاية المصلحة الخاصة والعامة، وان يبتعد بنفسه عن إتباع الهوى واختيار مراد النفس في حماية بيضة الإسلام وحفظ حياض الدين، وقد حافظ على هذه الفرصة حتى شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة عندما خُلع عن الخلافة". وقد وردت في **جامع التواريخ** هكذا: "كان لدى الجميع اهتمام أن يختاروا شخصاً لتولي منصب الخلافة وتقلد أمانة الإمامة يكون مدركاً لحق هذا الشغل العظيم والعمل الجسيم، ويحافظ على وجوب رعاية المصلحة الخاصة والعامة، وقد حافظ على هذه الفرصة حتى شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة عندما خُلع عن الخلافة" (٦).

وهكذا نرى في **جامع التواريخ** أن تركيب (منصب الخلافة) قد أُبدل بـ (نصب الخلافة) -في حالة كانت نسخة المرحوم آتش صحيحةً -وهذا التركيب لا معنى له.

ونلاحظ أن عبارة (وأن يبتعد بنفسه عن إتباع الهوى واختيار مراد النفس في حماية بيضة الإسلام وحفظ حياض الدين)، والتي هي الشرط الواجب لتنصيب الإمام واصطلاحاً هي روح الكلام، قد حُذفت من أجل تبسيط العبارة. وجميع مواضع الاختلاف في العبارات بين **جامع التواريخ** مع ترجمة **تاريخ يميني** تشبه هذه الحالة، إلا أنه لم يورد الأشعار العربية والفارسية والأمثال والأحاديث من أجل تبسيط الكتابة.

وفي تحرير تاريخ السلاجقة، يبدو أن مصدر المؤلف كتاب قد طُبِع الآن بعنوان **سلجوقنامه ظهيري**؛ وهذا ما كتبه المرحوم بهار: "بعد ذلك ظهر تاريخ السلاجقة، وهذا المجلد هو في الأصل قد أُقتبس من **راح الصدور** للراوندي، ولكن تمّ التلاعب بعباراته بشكل كبير، وفي بعض المواضع كانت العبارات منقولةً عينا عن **راحة الصدور** بلا زيادةٍ أو نقصانٍ" (٧)، وهذا ليس صحيحاً، لأن المقارنة بين النصوص الثلاثة ستدلنا على أن مصدر تأليف **راحة الصدور** و **جامع التواريخ** هو **سلجوقنامه**، وفي النهاية فقد أحدث مؤلف **راحة الصدور** تغييرات أكثر في عبارات **سلجوقنامه**، وأضاف عليها مواضع أخرى. وفي الفصل المتعلق بالسلاجقة، فلا تلاحظ فيه بساطة العبارة الموجودة في تاريخ الغزنويين. وقد اجتهد المؤلف في مواضع كثيرة أن يضع موضوعاته في قالبٍ من العبارات المتكلفة والمزوقة بالمترادفات والتشبيه والسجع، وإدخال أكثر ما يمكن من المفردات العربية، وأحياناً كان التكلف اللفظي لعباراته أكثر من عبارات **سلجوقنامه**. ولننظر إلى هذه العبارة: "عندما تصالح محمود سبكتكين مع ملك تركستان، ايلك خان، وجاء محمود إلى ضفة نهر جيحون واجتمعاً معاً وعقدا العهود والمواثيق، وعُينت حدود ممالك كلٍ منهما كان ايلك خان خائفاً من السلاجقة، فقبلها كان محمود بحكم المصاهرة والصدقة التي بينهما قد عقد سلسلة الوداد والاتحاد. فأرسل شخصاً من الذين كانوا في ممالك

هذه الرقعة ومسالك هذه البقعة من الأقوام الترك الذين لهم قوة كبيرة وشوكة عظيمة. والذين جاؤوا من تركستان منذ سنوات وأقاموا في نور بخارا ونواحي سمرقند... إلى أن اقتضت دغدغة خاطر ووسوسة الضمير أنكم إذا ما عزمتم على الحركة والتوجه نحو الهند، اظهروا الفتنة والفساد تبعاً لتغير وتبدل الزمان وتقلب وصروف الأيام الغادرة" (٨).

وقد ورد هذا الموضوع في **جامع التواريخ** هكذا: "وعندما تصالح محمود سبكتكين مع ايلك خان ملك تركستان وسمرقند، وجاء محمود إلى ضفة نهر جيحون، واجتمعوا مع بعضهما، وعقدا العهود والمواثيق، وعُينت حدود كل منهما... كان ايلك خان خائفاً منهم، فأرسل شخصاً إلى السلطان محمود؛ انه بحكم المصاهرة والوداد الذي كان معقوداً ومبرماً بين الجانبين فإن في ممالك هذه الرقعة ومسالك هذه البقعة قوم ذوو قوةٍ شديدةٍ وشوكةٍ عظيمةٍ من الأتراك، والذين جاؤوا من تركستان منذ سنوات، وأقاموا في نور بخارا ونواحي سُغد سمرقند، وقد خضعت جملة هذه المسارح والمراعي لهم، ووفرت للجيش الأهبة والآلات والأدوات والعدة، وصارت خيلهم بكامل قوتها وازداد عددها. إلى أن اقتضت دغدغة خاطر ووسوسة الضمير أنكم إذا ما عزمتم على الحركة والتوجه نحو الهند حصلت الفتنة والفساد منهم تبعاً لتغير وتبدل الزمان وتقلب الأيام الغادرة، بحيث يتعذر تلافي وتدارك ذلك" (٩).

هاتين العبارتين عينٌ بعضهما البعض مع اختلاف قليل في القيود وروابط الجملة وبعض الكلمات. ومن مقارنة فقرات **تاريخ السلاجقة** و**سلجوقنامه** يبدو واضحاً أن كاتب **تاريخ سلاجقه** كان أكثر نضجاً في عمله وأكثر مهارة في إنشاء النثر الفارسي من مؤلف **سلجوقنامه**. ولننظر إلى العبارتين التاليتين: "ظاهراً عندما لم يبق على وجه الأرض شيء، قاموا بنقب الأقباء والسرادييب، وخرّبوا القصور وعذبوا الأسرى وحشوا أفواههم بالتراب والملح ليدفنوهم، وإلا كانوا يموتون من الإجهاد والمشقة. وهرب من تبقى من ضرب السيف إلى الشقوق والحفر والآبار والقنوات حتى صلاة العشاء عندما خرج الغُزان من المدينة" (١٠). وقد جاء في **سلجوقنامه**: "وعندما لم يبق شيء ظاهراً تقبوا

أبواب الأقبية والجدران، وخرّبوا الأبنية والقصور، وعذبوا الأسرى وحشوا أفواههم بالتراب ليدفنونهم، وإلا كانوا يموتون من شدة إيذاء الجروح المؤلمة، ونهاراً كانوا يهربون إلى الآبار والقنوات المهجورة، وعند صلاة العشاء خرج الغوزان من المدينة" (١١).

قسم من هذا الكتاب يدور حول الاسماعيليين والفاطميين والنزاريين. وقد طُبع هذا القسم بتحقيق السادة دانش يزوه ومدرس زنجاني على نفقة مؤسسة الترجمة ونشر الكتاب. ومن خلال القراءة والتدقيق في الفصول المختلفة لهذا الكتاب، يمكن أن نستنتج أن إنشاء كل أبواب وفصول الكتاب لم تكن على ماءٍ واحدٍ، بل إن كل فصلٍ قد كتبه شخص؛ إلا إذا قلنا إن الكاتب قد اتخذ لنفسه في كتابة كل فصلٍ أسلوباً مختلفاً، وتبدو هذه النظرية في غاية البعد. فالفصل الذي كان حول سيدنا (*) والذي طُبع تكراراً، نثرٌ بسيطٌ يخلو من التزييق، ولكنه في الوقت نفسه ناضج ومنسجم. وقد حررت مقدمة الكتاب بنثر اسلوب أوائل القرن السادس، مثل هذه العبارة: "في زمان الدولة العباسية، نظروا، فوجدوا الميدان خالياً من الرجال، والخصم غافلاً، والأمورُ مهملةٌ، والهممُ قاصرةٌ، والعزائمُ واهيةٌ، وغلبت مسابيرُ الشهوات والذات، والأمرُ بالمعروف مقهورٌ، والنهي عن المنكر مغلوبٌ. فبحثوا في كل زاوية عن فرصة، فحرضوا الدعاة العقلاء ذوي اللسان الحلو والرفاق ذوي البيان الفصيح لطيفي الكلام على الدعوة" (١٢).

وكما نرى، فإن أول جملة قصيرة قد وردت، كانت مشتمةً على كامل أجزاء الجملة، في الوقت الذي جاءت فيه بقية المواضيع في حالة قيد وعلى شكل جملة محذوفة الرابطة ومعطوفة على الجملة الأولى. سياق العبارة يُدكّر بعبارة نظامي عروضي، وأسلوب الكتابة تقليد لنثر القرن السادس؛ مثلما نقرأ في **جهاز مقالته**: "كانت أسباب التمتع وعلل الترفع في غاية التصنع. الخزائن مهياةً والجيش جرّاراً، والعبيد مطيعون" (١٣).

مثلما ذكرنا فقد كان الفصل المتعلق بشرح حال سيدنا، نثر بسيط وجمل قصار وعبارات بمنتهى التساوي، كما نرى في هذه العبارة: "وقد جاء إلى

الإسكندرية في رجب سنة اثنتين وسبعين، وفجأة هبت ريح عاصفة وكسرت السفينة، فاضطرب الناس، وكان سيدنا هادئاً وغير مكترث، فسأله أحدهم: كيف تكون أمناً في هذه الحالة؟ فأجابه: لقد أخبرني المستنصر عن هذه الحادثة وقال لن يحصل أي خوف، لذا فأنا لا أفكر فيها" (١٤). وهذه العبارة أيضاً: "أرسل الحكيم أبو العباس رجلاً يدعى أرْجاني للمناظرة وقال: الاسماعيليون كُثِر في الارض ولكنهم لا يقتلون المسلمين وهناك الكثير ممن يتبعون مذهبكم. ولكنهم لا يفعلون ما تفعلونه. قال سيدنا: الناس مؤمنون بكتاب الله وسنة رسوله، وزعم الخصوم أننا نعرف الله بالعقل والفكر والعارف بالله لا يذهب بنفسه إلى النار. .." (١٥). ولكن تلاحظ أحياناً في بعض فصول الكتاب عبارات ليس لأسلوب تحريرها أي شبه مع مقدمة الكتاب أو الفصل المتعلق بسيدنا. وقد أظن الكاتب في إيراد المترادفات واستعمال المفردات العربية، فأغلق على نثره؛ مثل هذه العبارة: "اختلى مولانا يوماً وحيداً في التكية وحلّ عدة مسائل كانت مشكلةً بخلوته. وعندما حلّ وقت الطعام أرسل الخادم إلى البيت لإحضار الغذاء. فلما خرج من التكية انتهز فدائي متفقه الفرصة، وسأله مَنْ في خدمة مولانا من الأصحاب والأحاب؟ قال الخادم: لا أحد، فريداً ووحيداً، قال فدائي: أبطء وتأخر في المجيء فلدي مسألتين أو ثلاث قد أشكلت وأغلقت عليّ" (١٦).

إن تركيبات مثل: (منفرداً ومختلياً)، و(الغذاء والمأكل والطعام)، و(الأصحاب والأحاب)، و(فريد ووحيد)، و(التأخر والإبطاء)، و(مشكلٌ ومغلق) مترادفات لا نجد لها نظيراً في الفصول الأولى للكتاب.

ومرة أخرى فان عبارة: "فدائي... قال يقرؤك مولانا السلام ولديه نزاع والتياح واشتياق تام للقائكم ويدعوكم للحضور إلى القلعة" (١٧). إن كلمة (التياح) غريبة في النثر الفارسي، وكلمة (نزاع) ولو أن لها في العربية معنى الاشتياق، لكنها لم يسبق أن استخدمت في الأدب الفارسي بهذا المعنى. وأيضاً فإن من نماذج النثر المتكلف لهذا الكتاب: في (ولادة الحسن بن محمد) يقول: "عندما جلس على عرش المملكة مكان أبيه، استنقذ عادات الإلحاد... وكان يزجر ويوبخ ويمنع ويقرّع قومه وشيعته، ويحثهم على التزام الإيمان والإسلام

وإتباع عادات الشرع" (١٨). ويقول أيضاً: "وكانت أم جلال الدين حسن امرأة مسلمة زاهدة عابدةً سالحةً، وقد عزمت سنة تسع وستمئة على الحج، فارتفعت في طريق حجها رايتها وكان ملوك الأطراف وسلاطين الأكناف.. " وأيضاً "تعاهدوا وتواضعوا مع جلال الدين وكان بينهم التراضي والتصافي لحظة بلحظة يتصاعد ويرتقى". وتحكي جميع مواضع العبارة عن عدم اطلاع الكاتب على اسلوب اللغة الفارسية.

١. استعمال (استقذار) بدلاً من (إلغاء عادات الإلحاد).
٢. وصف (مسلمانه) لامرأة يشير إلى عدم إمام الكاتب بقواعد اللغة الفارسية.
٣. إيراد الفعل (تصاعد وارتقى) للتراضي والتصافي ليس فصيحاً. وهذه نماذج لانحطاط النثر وعلامة على عدم نضج كاتب هذا الفصل من الكتاب، ويدل على أن كاتب هذا الفصل ليس كاتب الفصول الأخرى منه، لأنه يبدو بعيداً عن القريحة المباشرة أن يكون من كتب الفصول الأولى هو الكاتب نفسه، وفي هذا الفصل يميل إلى هذا الانحطاط.

أما ذلك القسم من **جامع التواريخ** الذي يعد علامة على الأسلوب الحقيقي والتخصصي لمؤلف الكتاب. فهو القسم المتعلق بتاريخ الملوك المغول وأنسابهم؛ لأنه لم يكن يتوفر كتاب جاهز لتحرير هذا المجلد ليكتب المؤلف متكناً عليه وفي النتيجة فقد بقي مصدر الكتاب محفوظاً نوعاً ما. فكل ما كتبوا كان من إنشائهم هم أنفسهم وكان إتباعاً للأسلوب الرائج في عصره. ولكن نثر هذا الفصل من الكتاب هو أيضاً من البداية إلى النهاية ليس على المنوال نفسه؛ فأحياناً نرى فقرات في غاية البساطة والسلاسة ولا تتضمن أية إشارة إلى الصناعات اللفظية؛ مثل هذه العبارة: "وأيضاً في هذه السنة فقد توجه ابن الملك يساور من قندهار وكرمسير نحو سيستان وكتب كتاباً إلى الملك ناصر الدين: إننا، ولعهودٍ، كنا وبحكم أمر المغفور له السلطان أجايتو سلطان، والأمر الملكي لابن ملك العالم أبو سعيد بهادر في ديارنا هذه ومازندران وزابل وكابل إلى نهر السند التي وهباها لنا". هذه هي العبارة، وكما نرى قد حررت بنثر بسيط وفصيح. باستثناء (الأمر الملكي = يرليغ) التي هي اصطلاح إداري ولا

حيلة من استعماله، والذي ورد في كتاب المصنف. ومرة أخرى لنتنبه إلى هذه العبارة: "ذهب حاجُّ إلى البصرة، ومن هناك توجه إلى مكة مع مالٍ وفيرٍ. فتعرض له الأعراب وسلبوه قرابة مئة تومان من ماله وأخذوه إلى مصر أمام الملك الناصر فأخلى سبيل الحاج وجماعة آخرين من ذوي السمعة الحسنة".

ولكن في هذا القسم نلاحظ أيضاً وبوضوح قلةً وكثرةً في آثار التغيير في النثر، والخروج عن موازين الفصاحة، والميل نحو عدم استعمال القيود، وعدم مراعاة النقاط القواعدية. والآن نذكر نماذج من هذه المواضيع:

١. حذف الرابطة بدون قرينة: "ومن هذه الناحية فمع انه قد احتاط كثيراً في الأمور الشرعية، فقد حصل اختلاف كثير فيها مما أدى إلى التشكيك في بعض الأحاديث النبوية أيضاً". "وعناية ذو الجلال في سابقة لطف ما تزال قد اقتضت هكذا أن يكون تأديب المسلمين على يد طائفة موحدة وعارفة بالله وليسوا مشركين ولا أعداء للدين". "ومن الممكن أن لا يكون جميع الخلق متفقي الكلمة في جميع القضايا، وهذا المعنى واضح وصريح لدى الجميع، عندما ينقل المؤرخ عن أقوام مختلفة". "ومع انه لم يكن يملك استعداداً لهذا العمل الكبير ولم يستوف قوة العقل والدين...".

٢. حذف الفعل بدون قرينة: "وقد جعل العالم نقياً والقلوب على رأي واحد وطهر بلا خوف بيضة وحياض الممالك من سيطرة الغالبيين الجائرين وظلم المعتدين". "وقد بقيت جملة قصص وأخبار وأحوال العالم متروكة وحرمة عموم الخلق من فوائدها". إيراد ياء الاستمرارية خطأ وذكر الفعل الماضي بدلاً من المضارع الإخباري: "لقد اخرجوا المستترين من ستر العصمة. وفي هذه الحالة إذا احتل المغول جملة من الأطراف، فإن جمع جيش الأطراف سهل وأنا أفرقهم بجيش محمول. وإذا وقع الخلاف المتوقع، فالأولى أن يُقتل الرجل الشهم في ميدان المعركة وباسم العقيدة"^(٩).

إن إيراد القيد في آخر الجملة هو خلاف أسلوب القدماء الذين كان أكثرهم يأتي به قبل المسند: "وبقي ذكر الملوك المشهورين والكياسرة الموفقين... على أوراق الزمان أبداً مخلداً". إن تكرار كلمة (على) في العبارة

السابقة هي حشو أيضاً. ولكن ذلك القسم من الكتاب الذي حُرر بنثر مصنوع، وزُين بأنواع الصناعات اللفظية من سجع وجناس، وتشبيه، وتضاد، وموازنة، وترصيع، مثل: "أما حال عاشقي الجمال الجلاي الطالبين لسلوك الطريق والراكضين في صحراء التعب"، و"عندما شاهد إبراهيم - عليه السلام - تسليم إسماعيل، ولشدة إخلاصه وجديته البالغة بادر إلى ربط يديه ورجليه بلطف ووضع جانبه على الأرض"، و"وقد عُرفت لديهم أحوال القرون الآتية من أحوال القرون الماضية"، و"وقد تجنبوا جادة الشرع القويم الذي هو الصراط المستقيم على قدر ما ارتكبوا، فاستوجب عليهم التأديب واستحقوا التعذيب ليستيقظوا من نوم الغفلة وأن يحذروا من سُكر النخوة".

ومن الكُتاب السالفين الذين نرى تأثيرهم مشهوداً أكثر من غيرهم في نثر الكتاب نظامى عروضى وعطاء ملك جوينى؛ ففي هذه العبارة مثلاً: "ودليل صدق هذا المعنى هو كم كانت المملكة واسعة، وشوكة نافذة، وبنعمة جزيلة، وأموال وفيرة وخزائن كثيرة جداً، وتتوافر على جميع أسباب السعادة والنعم في هذه الدنيا التي تحصّل عليها السلطان محمود الغزنوي. واليوم لم يبق اسمه الطيب وذكره الجميل إلا بواسطة حديث عنصرى وفردوسى وكلام عتبى:

ما زال في العالم باقياً مقيداً بقيد القافية آثار حسن سيرة محمود الغزنوي

وبلا شك فإنه قد تأثر بعبارة نظامى عروضى التالية: "كثير من العظماء الذين أكلوا نعمة الملوك وقدموا العطايا العظيمة، واليوم ليس من آثارهم شيء، ولا من خدمهم وحشمهم أحد، وكثيراً من القصور المنقوشة والجنائن الجذابة التي بنوها وزينوها قد سُويت اليوم بالأرض، وأصبحت شبيهة بالفقر والأودية:

كثيراً من القصور التي بناها محمود والتي أوصل علوها إلى القمر

ألم تر أن لبنة من بينها فقط ظلت واقفة ولكن مديح عنصرى قد بقي صامداً

إن الرسائل هي أيضاً من جملة المؤلفات المنشورة للخواجه رشيد الدين، والتي تعد ذات اسلوب أصيل وخاص به، ولو أنها في أصولها تعدُّ امتداداً لفن كتابة الرسائل في القرن السادس، لكن مميزاتها العديدة تعطيها صفة خاصة.

هذه الرسائل جمعها رجل يدعى محمد ابرقويي والذي يُعرّف نفسه على أنه كاتب الخواجه وكتب مقدمة لها. أكثر الرسائل كانت مكتوبة بعنوان أبناء الخواجه الذين كانوا حكام الولايات، وبعضها مُصدّرة باسم علماء وعظماء عصره. كان نثر الرسائل على خلاف نثر **جامع التواريخ**، فقد كان متصنعاً ومتكلفاً. وقبل هذا فإن الكلمات والتراكيب العربية التي هي من خصائص رسائل هذا العصر، يلاحظ فيها استخدام الصناعات اللفظية من التضمين، والسجع، والترصيع الكثير، ومن الاستعارة والتشبيه القليل؛ فيما عدا الرسائل التي يكون موضوعها في المسائل الدينية والكلامية، ففيها يتحرر النثر من قيد التكلف ويميل إلى النثر المرسل؛ مثل هذه العبارة: "النوع الأول المتعلق بالجوارح، مثل السرقة وشرب الخمر وعقوق الوالدين والزنا وبقية الذنوب المتعلقة بالجسم كله والتي تدعى ظاهر الإثم" (٢٠). نلاحظ في هذه العبارة أن ظاهر الإثم وحده مأخوذ من الآية ١٢٠ من سورة الأنعام قد جاء على شكل اقتباس. ولكن أكثر المراسلات وخصوصاً مقدمات صدر الرسائل كانت تُحرر بنثر متصنع ومزِين بالاستعارات والتشبيهات المختلفة والمشحونة بالكلمات العربية؛ مثل هذه العبارة: "عطارد وزير ملك ملوك الفلك، من اللئاليء المتألئة الأرقام والأقلام والمخدوم الحقيقي الملتقط فرائد فوائد... " (٢١). وكان الاقتباس من القرآن المجيد، وإيراد الأمثال، والأشعار الفارسية والعربية هو أيضاً واحداً من الصفات الأخرى لهذه الرسائل، كما كان معمولاً به في ذلك العصر. وندرج ذيلاً نموذجاً من الاقتباس من الآيات القرآنية، وإيراد الحديث، والصناعات البديعية لهذه الرسائل.

اقتباس الآيات القرآنية:

هذه الصناعة قد جاءت في ٣٨ رسالة من ٥٣ رسالة، واقتباس الآيات له درجات مختلفة؛ فأحياناً تمزج الآية مع العبارة بحيث تعد بحكم ركن للجملة أو جزء متمم لها: "والبعض يكون بحال تلفحهم بها الشدائد، كما في كلما نصجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيره" (٢٢).

"ابتداءً فإن الكافر يضل نفسه في صحراء الضلالة بسبب غلبة جهالة نفسه والمنافق مع علمه، مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء" (٢٣)، ليس كافراً وليس مسلماً، ومن مات في الدرجة الرفيعة والمنزلة الراقية من خلان الوفاء وإخوان الصفاء، ومن نجا من مهاوي كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران" (٢٤). "وفجأة تهب نسائم العناية من مهب لطف ولا تياسوا من روح الله، ولا تقنطوا من رحمة الله" (٢٥). وأحياناً بشكل استشهاد وتأييد للقول السابق: "والجنة بوسعه وعرض عدة سموات وارضين، كما قال عز وجل: "وجنة عرضها كعرض السماء والأرض" (٢٦). "ويطلق لسانه بالذكر والتسبيح والتقديس والتهليل لخالق الأرواح والأجسام، والأفلاك والأجرام، استناداً إلى الأ بذكر الله تطمئن القلوب" (٢٧).

تضمين الحديث بصورة استشهاد:

"أن يصرف كل همته وتما سعيه بموجب كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، لرفاه الرعايا ودائع رب البرايا جلّت قدرته" (٢٨).
ويلاحظ أيضاً أن الموازنة والترصيع من الصناعات التي استعملت أكثر من غيرها من المحسنات اللفظية في هذه الرسائل: "ديار الصلاح مهجورة، وطريق الفلاح بعيدة؛ فطنتهم جامدة وفطرتهم خامدة؛ شمس ديانتهم منكسفة، وقمر أمانتهم منخسف؛ وشمس إقبالهم زائلة في المغرب، ونجم آمالهم في عقدة الذنب والوبال".

وأنواع الجناس وخصوصاً جناس الاشتقاق في الرسائل كثيرة وتشير إلى أن المؤلف كان يولي اهتماماً خاصاً للإغراق في هذه الصناعة: "لا تتبع السائلين إلى سؤال نيل حاجتهم؛ جماعة المتمردين الذين تحصنوا في الجبال العصية والقلاع الحصينة، والمساكين الساكنين في مساكن الذل والهوان، قد خيمت جنود الحزن في ربوع حبورهم، وحلّت عساكر الندم في معسكرهم".

الطباق والتضاد:

"لا تكلف سفلة الناس بالأعمال الخطيرة. ولا تعطي الأعمال الكبيرة إلى العمال الصغار. واشدد حزام الحرص على المال والروح على الشاب والعجوز والوضيع والشريف والقوي والضعيف".

إن الإطناب من السمات البارزة لرسائل القرن السادس والسابع، ولكن تم الإفراط في هذه الصناعة في مكاتبات رشيدى ؛ وخصوصاً في صدر الرسائل التي ترد في الركن الأصلي للجملة بحدود جمل وقبود وصفية والتي تؤدي إلى انصراف ذهن القارئ عن أصل المعنى: "الكتاب أرباب الفطنة وسدنة المملكة، ومنفار قلمهم بلبل بستان البلاغة وندليب أغصان البراعة، لأنهم يزينون عذرية الصباح بصفيرة الليل الملونة بلون العنبر ويلف وجه الدولة وراية النصره بخال الخلود و طغراء المقصود، ويجعلون بيوت الملوك كنز خزائن قارون وطميرة دفائن فريدون:

فَتُعَنْبِرُ فِي سَاعَةِ الْجَيْبِ نَسْرِينَ وَالثَّوْبُ كَانُورُ

احذر وانصرف إلى حفظ جانب وصيانة ناموس هذه المجموعة من أرباب المقدره" (٢٩). حيث أن خلاصة هذه العبارة الطويلة هذه الكلمات الست فقط: "ارغ الكتاب قدر الاستطاعة".

وبهذه العبارة: "العلماء الذين هم أساس الدين والملة ونظام الحلال والحرام، والنص المجيد: يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً قد نزلت في حقهم، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أصبح ظاهراً من وفرة علمهم، والحديث النبوي العلماء ورثة الأنبياء قد جاء في حق هذه الجماعة، وجوه علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل قد ورد في التعريف بهمهمم:

طلب العلم والقناعة شأني لست أبغي سواهما في الزمان
فإذا ما قنعتُ صرتُ فنياً وإذا ما علمت نلت الأمانى

العامه عُمي، والمبصر في العالم زمرة أرباب الفضل والعلم
ورثة الأنبياء المرسلين حملة العلم وأهل البصيرة

واحذر فيما يتعلق بهذه الزمرة أن تعاملهم معاملة العبودية" (٣٠). وحاصل هذه العبارة الطويلة هذه الكلمات الثلاث: "اخدم العلماء". هذه الفقرات قليل من كثير وحفنة من قنطار ونموذج مختصر من مفصل الصناعات اللفظية والمعنوية والتي تشاهد في جميع مواضع مكاتبات رشيدى.

الهوامش:

- (١) جامع التواريخ، تصحيح احمد آتش، ص ٧.
 - (٢) تاريخ بيهقي، تصحيح فياض، ص ٥٧٥.
 - (٣) المصدر نفسه، ٤٥٧.
 - (٤) ترجمة تاريخ يميني. (قصة معركة ايلك خان).
 - (٥) جامع التواريخ، ص ١٥٣.
 - (٦) المصدر نفسه، ص ١٥٨.
 - (٧) سبك شناسي، ج ٣، ص ١٧٣.
 - (٨) نيشابوري، ظهير الدين، سلجوقنامه، تهران ١٣٣٢، ص ١٠-١١.
 - (٩) جامع التواريخ (تاريخ آل سلجوق)، ص ٦.
 - (١٠) جامع التواريخ، ص ٩٧.
 - (١١) سلجوقنامه، ص ٥٠.
 - (*) سيدنا: أو شيخ الجبل، هو لقب حسن الصباح زعيم الإسماعيلية في إيران. ولد سنة ٤٣٠ هـ، وتوفي سنة ٥١٨ هـ. (المترجم)
 - (١٢) جامع التواريخ مقدمه، ٧-٨.
 - (١٣) چهار مقاله، (المقالة الثانية، الحكاية الثانية).
 - (١٤) جامع التواريخ، ص ١٠٢.
 - (١٥) چهار مقاله، ص ١٢٧.
 - (١٦) جامع التواريخ، ص ١٧١.
 - (١٧) المصدر نفسه، ص ١٧٢.
 - (١٨) المصدر نفسه، ص ١٧٤.
 - (١٩) جامع التواريخ، (وقائع فتح بغداد).
 - (٢٠) مكاتبات رشیدی، محمد شفيح، ص ٦.
 - (٢١) المصدر نفسه، ص ٧.
 - (٢٢) مكاتبات رشیدی، ص ٣٧. الصواب: "بدلناهم جلوداً غيرها". (المترجم)
 - (٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٩.
 - (٢٤) المصدر نفسه، ص ١١١.
 - (٢٥) المصدر نفسه، ص ١١.
 - (٢٦) المصدر نفسه، ص ٣٧، ص ٨٩، وجنة عرضها السموات والارض.
 - (٢٧) المصدر نفسه، ص ٨١.
 - (٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٠.
 - (٢٩) المصدر نفسه، ص ٨٥.
 - (٣٠) المصدر نفسه، ص ٨٦.
- ** زندگی نامه وخدمات علمی وفرهنگی دکتر سید جعفر شهیدی، انجمن آثار ومفاخر فرهنگي، چاپ شريف، چاپ دوم ١٣٨٨ هـ ش، ص ١١٩ - ١٣٩.

**The style of Persian books for Khawaja Rasheed
Addin Fadhel Allah
Edited by: Dr. Sayed J.Shahidi**

Translated by: Assis. Prof. PhD. Emad Al-Abbasi
Centre of revival of Arabian science heritage
University Baghdad

(Abstract)

This research (**The style of Persian books for Khawaja Rasheed Addin Fadhel Allah**) is marked to a minister and historian (1247-1318AD) for a number of his books and theses. Dr. Jafaar had started his research by collecting dates of a detailed book of general history in the world including a history of previous kings, prophets, the history of Islam until the fall of Baghdad, the history of Jews, the Christian history, India, China, and the history of the Mongols trying to discuss how to adopt author on sources and the accuracy of transporting some reference whether or not to refer to them set out examples in points or by historian phrases shows concords in words among them without any changes especially what he had transmitted from the history of Al-Tabry and how he had made it a source of him making another copy of it from the history by Yemini and also refers to the simplest changes that were included by Khawaja if necessary to move from these sources and lists examples to ungrammatical and meaningless words and structures or to use special terms from chapter without other that is the real style of the author of book, it is a part of Moguls kings because there is not available book to be as a source which had been kept and what had edited was by author himself and its style was following to the prevailing style of his time notice the prose of this book has characterized with simplicity.

The research has signed to a subject with quoted Ayat of Quran including Hdeeth, to confirm, counterpoint and contrast.